# النفس

عناصر الموضوع

| | |
|---|---|
| مفهوم النفس | ٣٢٠ |
| النفس في الاستعمال القرآني | ٣٢١ |
| الألفاظ ذات الصلة | ٣٢٢ |
| النفس في حق الله تعالى | ٣٢٥ |
| خلق النفس وهدايتها | ٣٢٦ |
| حالات النفس | ٣٣٢ |
| مسؤولية النفس | ٣٣٤ |
| من أمراض النفس الإنسانية | ٣٣٧ |
| حفظ النفس وبذلها | ٣٤٩ |
| النفس يوم القيامة | ٣٥٧ |

## مفهوم النفس

### أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «نفس، النون والفاء والسين أصل واحد يدل على خروج النسيم كيف كان، من ريح أو غيرها، وإليه يرجع فروعه»[(١)].

ولفظ (النفس) في اللغة يطلق ويراد به معان عديدة، منها:

(النفس) الروح، يقال: خرجت نفسه.

والنفس الجسد، ويقولون: ثلاثة أنفسٍ فيذكرونه؛ لأنهم يريدون به الإنسان.

و(نفس) الشيء عينه يؤكد به، يقال: رأيت فلانًا نفسه وجاءني بنفسه[(٢)].

ومن معاني (النفس) أيضًا: العظمة والكبر. و(النفس): العزة. و(النفس): الهمة. و(النفس): الأنفة. و(النفس): عين الشيء وكنهه وجوهره[(٣)].

والنفس: في كلام العرب يجري على ضربين: أحدهما: خرجت نفسه، أي: روحه. والثاني: معنى النفس فيه جملة الشيء وحقيقته[(٤)].

### ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

النفس في اصطلاح العلماء لها عدة معانٍ، منها:

ما ذكره الجرجاني: « هي الجوهر البخاري اللطيف الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الإرادية »[(٥)].

وعرفها الملا علي بأنها: « لطيفةٌ في الجسد تولدت من ازدواج الروح بالبدن واتصالهما معًا»[(٦)].

قال المناوي: «هي جوهر مشرق للبدن، فعند الموت ينقطع ضوؤه من ظاهر البدن وباطنه»[(٧)].

---

(١) مقاييس اللغة ٥/ ٤٦٠.
(٢) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص ٣١٦.
(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ١٣/ ٨.
(٤) انظر: تاج العروس، الزبيدي ١٦/ ٥٥٩.
(٥) التعريفات، الجرجاني ص ٢٤٢.
(٦) مرقاة المفاتيح، الملا علي القاري ٥/ ١٩٠١.
(٧) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٣٢٧.

## النفس في الاستعمال القرآني

**وردت مادة (نفس) في القرآن الكريم (٢٩٨) مرة، يخص موضوع البحث منها (٢٩٥) مرة**(١).

**والصيغ التي وردت، هي:**

| الصيغة | عدد المرات | المثال |
|---|---|---|
| **المفرد** | ١٤٠ | ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة:٤٨] |
| **الجمع** | ١٥٥ | ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾ [التكوير:٧] |

**وجاءت النفس في القرآن على أربعة أوجه**(٢):

**أحدها: القلب: ومنه قوله تعالى:** ﴿وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾ [النجم:٢٣] **يعني: القلوب.**

**الثاني: الجنس والنوع، ومنه قوله تعالى:** ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة:١٢٨] **يعني: من جنسكم.**

**الثالث: الإنسان، ومنه قوله تعالى:** ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢] **يعني: الإنسان بالإنسان.**

**الرابع: الروح: ومنه قوله تعالى:** ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام:٩٣] **يعني: أرواحكم.**

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله إبراهيم جلغوم، ص ١٣٣٥-١٣٤١.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٤٥٠-٤٤٩.

## الألفاظ ذات الصلة

### ١ الروح:

الروح لغة:

قال ابن فارس: (روح) الراء والواو والحاء أصل كبير مطرد، يدل على سعة وفسحة واطراد. وأصل ذلك كله الريح. وأصل الياء في الريح الواو، وإنما قلبت ياء لكسرة ما قبلها. فالروح روح الإنسان، وإنما هو مشتق من الريح، وكذلك الباب كله. والروح: نسيم الريح. ويقال أراح الإنسان، إذا تنفس[(١)].

الروح اصطلاحًا:

قال السهيلي: «الروح مشتق من الريح وهو جسمٌ هوائي لطيفٌ به تكون حياة الجسد عادةً أجراها الله تعالى»[(٢)].

قال العلماء: لا نعلم حقيقتها وهو مما جهل العباد بعلمه مع التيقن بوجوده بدليل قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥].

ووجود الروح أمر متفق عليه في كل الأديان السماوية، كما قال اليهود لقريش: اسألوا محمدًا عن ثلاثة أشياء فإن أخبركم عن شيئين وأمسك عن الثالث فهو نبي، اسألوه عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح[(٣)].

الصلة بين النفس والروح:

تعددت آراء العلماء في تحديد مفهوم النفس والروح، هل النفس هي الروح أو غيرها؟ فكثرت في ذلك الأقوال:

**القول الأول:** إن الروح هي النفس وأخذوا بظواهر من الأحاديث ألفاظها محتملةٌ للتأويل واتساعاتها في الكلام كثيرةٌ، فمما تعلقوا به في أن الروح هي النفس قول بلالٍ: (أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك)[(٤)]، مع قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله قبض أرواحنا)[(٥)]،

(١) مقاييس اللغة ٢/ ٤٥٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١١٦.
(٣) المصدر السابق.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما جاء في القنوت، رقم ١٥٠٥، ٢/ ١٣٨.
(٥) أخرجه مالك في الموطأ، رقم ٢٦، ١/ ٤٦ قال الألباني: صحيح.

وقوله عز وجل: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ ﴾ [الزمر:٤٢].

**القول الثاني:** أن النفس غير الروح، وهؤلاء يحتجون بأن الله خلق آدم عليه السلام وجعل فيه نفسًا وروحًا، فمن الروح عفافه وفهمه وحلمه وسخاؤه ووفاؤه ومن النفس شهوته وطيشه وسفهه وغضبه ونحو هذا، وقال تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ﴾ [المائدة:١١٦]. فلا يحسن ذكر أحدهما في محل الآخر.

**القول الثالث:** ذكر السهيلي الخلاف بين العلماء هل الروح هي النفس أو غيرها، ثم جمع بين الأقوال وقرر أن الروح: ذاتٌ لطيفةٌ كالهواء، ساريةٌ في الجسد كسريان الماء في عروق الشجر، وأن الروح التي ينفخها الملك في الجنين هي النفس بشرط اتصالها بالبدن، واكتسابها بسببه صفات مدحٍ أو ذمٍ، فهي إما نفسٌ مطمئنةٌ أو أمارةٌ بالسوء، ثم نبه على التوسع حتى يطلق على الجسد والروح، وجملة ما قاله السهيلي: إن الروح لا يقال هي النفس مطلقًا، بل يفصل بينهما، فالروح أصل النفس ومادتها، والنفس مركبةٌ منها ومن اتصالها بالبدن، فهي هي من وجهٍ لا من كل وجهٍ [(١)].

وقد أيد ابن كثير هذه المعاني - بتعقيبه على أقوال السهيلي - بقوله: « وهذا معنًى حسنٌ، والله أعلم »[(٢)].

## ٢ الجسد:

### الجسد لغة:

قال ابن فارس: «(جسد) الجيم والسين والدال يدل على تجمع الشيء أيضا واشتداده. من ذلك جسد الإنسان»[(٣)]، والجسد: البدن. تقول منه: تجسد، كما تقول من الجسم: تجسم. والجسد أيضًا: الزعفران أو نحوه من الصبغ، وهو الدم أيضًا[(٤)].

### الجسد اصطلاحًا:

الجسد: «جسم الإنسان، ولا يقال لغيره من الأجسام المغتذية»[(٥)]، حيث قال الفراهيدي: «الجسد للإنسان، ولا يقال لغير الإنسان جسدٌ من خلق الأرض» [(٦)].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/ ١١٦.
(٢) المصدر السابق.
(٣) مقاييس اللغة ١/ ٤٥٧.
(٤) انظر: الصحاح، الجوهري ٢/ ٤٥٦.
(٥) المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٧/ ٢٦٠.
(٦) العين ٦/ ٤٧.

الصلة بين الجسد والنفس:

اعتبر صاحب تاج العروس أن النفس هي الجسد، حيث قال:« والنفس: الجسد، وهو مجازٌ »[(١)].

وفي هذا المجال يرى السهيلي أن الإنسان روحٌ وجسدٌ، حيث بين رأيه، ثم علله بقوله: «وقد يعبر بالنفس عن جملة الإنسان روحه وجسده، فتقول: عندي ثلاثة أنفسٍ، ولا تقول: عندي ثلاثة أرواحٍ »[(٢)].

قال ابن جبرين: «فما دامت الروح في الجسد فإنها تسمى نفسًا وتسمى روحًا، فإذا خرجت الروح من الجسد فإنها لا تسمى نفسًا غالبًا، وإن كانت قد تسمى بذلك في مثل قول الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَالْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام:٩٣].

يعني: أخرجوا أرواحكم، فإذا خرجت فإنها تقبضها الملائكة وتكفنها، وكذلك قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر:٤٢] فسماها هاهنا نفسًا، فما دامت في الجسد فإنها تسمى نفسًا، الله يتوفاها يعني: يقبضها، وبعد قبضها يغلب عليها اسم الروح، وكذلك في النوم نفس النائم تخرج، ولكنها لا تخرج خروجًا كليًا، بل يبقى أثرها على البدن »[(٣)].

(١) تاج العروس، الزبيدي ١٦/ ٥٦٠.
(٢) الروض الأنف، السهيلي، ٣/ ١٠٠.
(٣) شرح الطحاوية، ابن جبرين ٥٩/ ٧.

## النفس في حق الله تعالى

جاء ذكر النفس في حق الله تعالى في مواضع عدة من القرآن الكريم، منها: قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران:٢٨].

وقوله تعالى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾ [طه:٤١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة:١١٦].

وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤].

وجاء ذكرها كذلك في السنة في أحاديث كثيرة، منها:

حديث أبي ذرٍ رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله عز وجل أنه قال: **(يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي)**(١).

حديث عائشة رضي الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(وأعوذ بك منك لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك)**(٢).

حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(يقول الله تعالى: (أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي)**(٣).

ونقل ابن بطال الإجماع على أن نفس الله ذاته، حيث قال: «وما ذكر في الأحاديث من ذكر النفس فالمراد به إثبات نفس لله، والنفس لفظة تحتمل معانٍ، والمراد بنفسه تعالى ذاته، فنفسه ليس بأمر يزيد عليه، فوجب أن تكون نفسه هي هو، وهذا إجماع»(٤).

أقوال العلماء في النفس: اختلف أهل العلم في النفس المثبتة لله تعالى:

أبو حنيفة النعمان بن ثابت الذي قال في الفقه الأكبر تحت عنوان: «القول في الصفات»:

«وله يد ووجه ونفس كما ذكره الله تعالى في القرآن، فما ذكره الله تعالى في القرآن من ذكر الوجه واليد والنفس فهو له صفات بلا كيف، ولا يقال: إن يده قدرته أو نعمته؛ لأن فيه إبطال الصفة وهو قول أهل القدر والاعتزال، ولكن يده صفته بلا كيف،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، ٤/ ١٩٩٤ رقم ٢٥٧٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، ١/ ٣٥٢، رقم ٤٨٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (ويحذركم الله نفسه)، ٩/ ١٢١، رقم ٧٤٠٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر، باب الحث على ذكر الله، ٤/ ٢٠٦١، رقم ٢٦٧٥.

(٤) شرح صحيح البخاري، ابن بطال ١٠/ ٤٢٧.

وغضبه ورضاه صفتان من صفات الله تعالى بلا كيف »[1].

واستدل ابن عادل على جواز تسمية ذات الله بالنفس خلال تفسيره للآية: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ حيث قال:« دلت هذه الآية على جواز تسمية ذات الله سبحانه وتعالى بالنفس، أيضًا قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة:١١٦] يدل عليه، والنفس هنا بمعنى الذات والحقيقة، لا بمعنى الجسم والدم؛ لأنه سبحانه وتعالى مقدسٌ عنه؛ لأنه لو كان جسمًا لكان مركبًا، والمركب ممكن، وذلك باطلٌ؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١]»[2].

قال ابن عاشور: « وفي جواز إطلاق النفس على ذات الله تعالى بدون مشاكلةٍ خلافٌ»[3].

وما نرجحه هو أن النفس هي ذات الله سبحانه وتعالى المتصفة، دون تشبيه أو تمثيل أو تعطيل.

## خلق النفس وهدايتها

### أولًا: الخلق من نفس واحدة:

جاء ذكر خلق الناس من نفس واحدة في أربع آيات، منها ثلاث بصيغة الخلق: (خلقكم) والرابعة بصيغة الإنشاء: (أنشأكم).

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء:١].

والمعنى: احذروا أيها الناس ربكم في أن تخالفوا أمره ونهيه، فيحل بكم عقابه، ثم بين عز وجل أنه خلق جميع الناس من شخصٍ واحدٍ، يعني: من آدم، وخلق من النفس الواحدة زوجها؛ أي: امرأتها حواء، فنبههم بذلك على أن جميعهم بنو رجلٍ واحدٍ وأمٍ واحدةٍ، وأن حق بعضهم على بعضٍ واجبٌ وجوب حق الأخ على أخيه؛ لاجتماعهم في النسب إلى أبٍ واحدٍ وأمٍ واحدةٍ، وأن بعد التلاقي في النسب إلى آدم مثل الذي يلزمهم من ذلك في النسب الأدنى؛ ليتناصفوا، ولا يتظالموا؛ وليبذل القوي من نفسه للضعيف حقه بالمعروف، على شرع الله، ثم أسند الطبري هذا القول لعدد من التابعين هم:

(١) الفقه الأكبر، أبو حنيفة ص ٢٧.
(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٨/ ١٧٥.
(٣) التحرير والتنوير ٧/ ١١٥.

السدي، وقتادة، ومجاهد [1].

قال ابن كثير: « يقول تعالى آمرًا خلقه بتقواه، وهي عبادته وحده لا شريك له، ومنبهًا لهم على قدرته التي خلقهم بها من نفسٍ واحدةٍ، وهي آدم عليه السلام ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وهي حواء، عليها السلام، خلقت من ضلعه الأيسر من خلفه وهو نائمٌ، فاستيقظ فرآها فأعجبته، فأنس إليها وأنست إليه» [2].

وبين القاسمي أن هذا الخلق يعد من قدرة الله الباهرة، وحقيق بالاعتبار، حيث قال عن ذلك: « ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ أي: اخشوه أن تخالفوه فيما أمركم به أو نهاكم عنه، ثم نبههم على اتصافه بكمال القدرة الباهرة؛ لتأييد الأمر بالتقوى وتأكيد إيجاب الامتثال به على طريق الترغيب والترهيب، بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي: فرعكم من أصل واحد وهو نفس أبيكم آدم، وخلقه تعالى إياهم على هذا النمط البديع مما يدل على القدرة العظيمة» [3].

وقال تعالى: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف:١٨٩].

وكذلك في هذه الآية المقصود بالنفس الواحدة هو آدم، وزوجها هي حواء، حيث أخرج الطبري عن قتادة « قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ من آدم » ويعني بقوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وجعل من النفس الواحدة وهو آدم زوجها حواء» [4].

وقال البغوي:« قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ يعني: من آدم، ﴿وَجَعَلَ﴾ وخلق منها زوجها، يعني: حواء، ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ليأنس بها ويأوي إليها، فلما تغشاها، أي: واقعها وجامعها حملت حملًا خفيفًا، وهو أن أول ما تحمل المرأة من النطفة يكون خفيفًا عليها، فمرت به، أي: استمرت به وقامت وقعدت به ولم يثقلها» [5].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنعام:٩٨].

معنى الآية: الإنشاء: هو الإحداث والإيجاد، ولم يبين هنا كيفية إنشائهم من نفسٍ واحدةٍ، ولكنه بين ذلك في مواضع أخر بأنه خلق من تلك النفس الواحدة التي هي آدم زوجها حواء، وبث منهما رجالًا كثيرًا ونساءً [6].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٣٣٩ - ٣٤٠.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٠٦.
(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٣/ ٥.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٦١٧.
(٥) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٥٧.
(٦) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٤٨٩.

ثانيًا: بيان طريق الهداية والضلال:

قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠)﴾ [الشمس:٧-١٠].

معنى قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ أي: خلقها سويةً مستقيمةً على الفطرة القويمة.

وقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ أي: فأرشدها إلى فجورها وتقواها، وبين لها ذلك، وهداها إلى ما قدر لها، فبين لها الخير والشر[1].

وفي ذلك نقل القرطبي أقوالًا متقاربة لابن عباس وبعض التابعين، مفادها أن معنى قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ عرفها طريق الخير وطريق الشر، أي: عرفها الطاعة والمعصية، فإذا أراد الله عز وجل ألهم عبده المؤمن المتقي الخير فعمل به، وإذا أراد به السوء ألهم الفاجر فجوره والشر فعمل به، كما قال: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠)﴾ [البلد:١٠][2].

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أن ذلك لا ينافي وجود الأعمال التي بها تكون السعادة والشقاوة، وأن من كان من أهل السعادة فإنه ييسر لعمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فإنه ييسر لعمل أهل الشقاوة.

ونهى صلى الله عليه وسلم أن يتكل الإنسان على القدر ويدع العمل، وكل من اتكل على القدر وترك ما أمر به من الأعمال الواجبة هو من الأخسرين أعمالًا، وكان من جملة أهل الشقاوة الميسرين لعمل أهل الشقاوة؛ لأن أهل السعادة هم الذين يفعلون المأمور ويتركون المحظورة.

ففي صحيح مسلم عن عمران بن الحصين رضي الله عنه، قال:(**إن رجلين من مزينة أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا: يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم، ويكدحون فيه، أشيءٌ قضي عليهم ومضى فيهم من قدرٍ قد سبق، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجة عليهم؟ فقال:) لا، بل شيءٌ قضي عليهم ومضى فيهم، وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل:** ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨)﴾)[3].

ومعنى سواها في قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾: خلقها وأنشأها وسوى أعضاءها، والتنكير للتفخيم، و﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ أي: عرفها وأفهمها حالهما وما فيهما من الحسن والقبح، وقوله ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾: هو جواب القسم على الراجح، وقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ أي: خسر

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤١١.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ٧٥.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب كل ميسر لما خلق له، ٤/ ٢٠٤١، رقم ٢٦٥٠.

من أضلها وأغواها، فأخفاها وأهملها ولم يشهرها بالطاعة والعمل الصالح، والمراد هنا بالنفس إما: جميع ما خلق من الجن والإنس، وقيل: المراد نفس آدم [(١)].

معنى الإلهام في الآية: اختار الزجاج حمل الإلهام على التوفيق والخذلان، وذلك بتوفيقه إياها للتقوى، وخذلانه إياها للفجور، حيث قال: «علمها طريق الفجور وطريق الهدى، والكلام على أن ألهمها التقوى وفقها للتقوى، وألهمها فجورها خذلها» [(٢)].

قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾ [القيامة:١٤-١٥]

المعنى: بل للإنسان على نفسه من نفسه رقباء يرقبونه بعمله، ويشهدون عليه به، يعني: ولو اعتذر بكل عذر وجادل عن نفسه، فإنه لا ينفعه؛ لأنه قد شهد عليه شاهد من نفسه، وقيل: معناه ولو اعتذر فعليه من نفسه ما يكذب عذره، وهذا للإخبار بأن الكافر يعلم ما فعله؛ لأنهم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، إذ هو قرأ كتاب أعماله، والمقصود بالبصيرة:

- إما جوارح الإنسان، كسمعه وبصره ويده ورجله وجوارحه.
- أو ﴿بَلِ﴾ الإنسان شاهدٌ على نفسه وحده.

وأدخلت الهاء في قوله: ﴿بَصِيرَةٌ﴾ صفةٌ للذكر، وهي التي يسميها أهل الإعراب هاء المبالغة، كالهاء في قولهم: داهيةٌ وعلامةٌ وراويةٌ [(٣)].

والقرطبي أضاف معنىً ثالثًا نسبه إلى السدي والضحاك حين قال: «وقيل المراد بالبصيرة: الكاتبان اللذان يكتبان ما يكون منه من خيرٍ أو شرٍ، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ في من جعل المعاذير الستور» [(٤)].

كما وأضاف ابن عاشور معنىً رابعًا، وهو قوله: «ويحتمل أن تكون بصيرةٌ صفةً لموصوفٍ محذوفٍ، تقديره: حجةٌ بصيرةٌ، وتكون بصيرةٌ مجازًا في كونها بينةً كقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء:٥٩].

والتأنيث لتأنيث الموصوف، والمعاذير: اسم جمع معذرةٍ والمعنى: أن الكافر يعلم يومئذٍ أعماله التي استحق العقاب عليها، ويحاول أن يعتذر وهو يعلم أن لا عذر له، ولو أفصح عن جميع معاذيره» [(٥)].

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٤٥١، فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٥٤٧.
(٢) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٣٣٢.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٤٩١-٩٣. لباب التأويل، الخازن ٤/ ٣٧١.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ١٠٠.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٣٤٨.

ثالثًا: إحاطة علم الله بما في النفس:

قال تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾ [البقرة:٢٣٥].

معنى الآية: واعلموا أيها الناس أن الله يعلم ما في أنفسكم من هواهن، ونكاحهن، فاحذروا الله واتقوه في أنفسكم أن تأتوا شيئًا مما نهاكم عنه من عزم عقدة نكاحهن، واعلموا أن الله ذو سترٍ لذنوب عباده، وتغطيةٍ عليها فيما تكنه نفوس الرجال من خطبة المعتدات، وذكرهم إياهن في حال عددهن، أنه ذو أناةٍ لا يعجل على عباده بعقوبتهم على ذنوبهم [1].

والهاء في قوله (عليه):

- يحتمل أن تعود على الله تعالى، أي: فاحذروا عقابه.
- ويحتمل أن تعود على ما لا يجوز من العزم، أي: فاحذروا ما لا يجوز ولا تعزموا عليه.

فلما هددهم بأنه مطلعٌ على ما في أنفسهم، وحذرهم منه، أردف ذلك بالصفتين ﴿غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ ليزيل عنهم بعض روع التهديد والوعيد، والتحذير من عقابه، ليعتدل قلب المؤمن في الرجاء والخوف [2].

ويفيد قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ توعد المصرحين بخطبة النساء على ما يقع في ضمائرهم من أمور النساء، وأرشدهم إلى إضمار الخير دون الشر [3].

وقال أبو السعود: «﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ من ذوات الصدور التي من جملتها العزم على ما نهيتم عنه» [4].

وقال القاسمي: «واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم من الميل إليهن قبل الأجل فاحذروه، واعلموا أن الله غفورٌ يغفر ذلك الميل إذ لم يتعد العزم عقدة النكاح، حليمٌ لا يعاجل بالعقوبة» [5].

قال تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٤].

هذا إخبار من الله جل جلاله أن له ما في السماوات وما في الأرض، خلق الجميع ورزقهم ودبرهم لمصالحهم، فكانوا بأوامر في هذا الوجود إما ظاهرًا وإما على سبيل الخفية، فيغفر لمن يأتي بأسباب المغفرة، ويعذب من يشاء بذنبه الذي لم يتب منه،

(١) انظر: المصدر السابق ٤/ ٢٨٦.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٢٨٤، البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٥٢٦.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٤١.

(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ٢٣٣.

(٥) محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ١٦٠.

وسبحانه على كل شيء قدير لا يعجزه شيء.

ولما نزل قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ شق ذلك على المسلمين، وظنوا دخول هذه الخواطر فيه، فنزلت الآية التي بعدها، وفيها قوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة:٢٨٦].

فبينت أن ما لا طاقة لهم به فهو غير مؤاخذٍ له، ولا مكلف به [١]، ومرادهم أن هذه الآية أزالت الإيهام الواقع في النفوس من الآية الأولى [٢]، وبينت أن المراد بالآية الأولى: العزائم المصمم عليها [٣].

ومعنى الآية: وإن تبدوا ما في أنفسكم فتعملوا به أو تخفوه مما أضمرتم ونويتم، يحاسبكم به الله ويخبركم به، أو يكون ذلك في كتمان الشهادة، فإن تعلنوا الشهادة أو تخفوها يجازيكم بها الله، ثم يغفر للمؤمنين إظهارًا لفضله، ويعذب الكافرين إظهارًا لعدله، يدل عليه أنه قال: يحاسبكم به الله، ولم يقل: يؤاخذكم به، والمحاسبة غير المؤاخذة [٤].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ جملة شرطية جوابها: ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا﴾ أي: وإن تظهروا ما في قلوبكم ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ يعني: تسروه، فلا يطلع عليه أحد، يطلعكم عليه الله على وجه المحاسبة، ولا يلزم من المحاسبة العقوبة؛ ولهذا قال: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ [٥].

(١) انظر: روائع التفسير، ابن رجب الحنبلي ١/ ١٩٩.

(٢) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٢/ ٨٥.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٢٠.

(٤) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ١٨٨، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٤٠٠.

(٥) انظر: تفسير الفاتحة والبقرة، ابن عثيمين ٣/ ٤٣٣.

## حالات النفس

قسم العلماء النفس تقسيمات عديدة وفقًا لأحوالها المختلفة، ومن أهم هذه التقسيمات جعلوا النفوس ثلاثة أنواعٍ:

### أولًا: النفس الأمارة بالسوء:

وهي التي يغلب عليها اتباع هواها بفعل الذنوب والمعاصي، أي: هي التي تميل إلى الطبيعة البدنية، وتأمر باللذات والشهوات الحسية، وتجذب القلب إلى الجهة السفلية، فهي مأوى الشرور، ومنبع الأخلاق الذميمة، وهذه هي النفس هي التي توسوس لصاحبها وتحدثه بالآثام والتي يجب مجاهدتها.

قال تعالى: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾ [يوسف:٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ﴾ [ق:١٦].

ومقام الوسوسة من العبد مقام النفس الأمارة بالسوء، فوسوسة العدو في الصدور، وهو الشيطان المقصود في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥﴾ [الناس:٥].

ووسوسة النفس في القلب[١].

### ثانيًا: النفس اللوامة:

وهي التي تذنب وتتوب فعندها خيرٌ وشرٌ، لكن إذا فعلت الشر تابت وأنابت فتسمى لوامةً؛ لأنها تلوم صاحبها على الذنوب؛ ولأنها تتلوم أي: تتردد بين الخير والشر[٢].

فهي تلك التي تنورت بنور القلب عن سنة الغفلة، وكلما صدرت عنها سيئة بحكم جبلتها أخذت تلوم وتعنف نفسها وتتوب عنها، وحالت دون التمادي في العصيان، والتي تلومه كذلك على عدم الاستكثار في الخير[٣].

قال تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢﴾ [القيامة:١-٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥﴾ [آل عمران:١٣٥].

ولا يمكن زكاة النفس وطهارتها إلا بعد محاسبتها، وقد ربط ابن القيم بين هذين المعنيين حيث قال: «فإن زكاتها وطهارتها موقوفٌ على محاسبتها، فلا تزكو ولا تطهر ولا تصلح ألبتة إلا بمحاسبتها، فبمحاسبتها يطلع على عيوبها ونقائصها، فيمكنه السعي

(١) انظر: تفسير السلمي ٢/ ٤٣٤، تفسير التستري ١/ ٢١١.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ١٢٥.
(٣) التعريفات، الجرجاني، ص٢٤٣.

في إصلاحها »[1].

ووقت الليل هو أفضل الأوقات لمحاسبة الإنسان لنفسه، وأكد الماوردي هذا المفهوم وبين سببه وكيفيته، حيث قال: « ثم عليه أن يتصفح في ليله ما صدر من أفعال نهاره، فإن الليل أخطر للخاطر وأجمع للفكر، فإن كان محمودًا أمضاه وأتبعه بما شاكله وضاهاه، وإن كان مذمومًا استدركه إن أمكن وانتهى عن مثله في المستقبل »[2].

## ثالثًا: النفس المطمئنة:

وهي التي تحب الخير والحسنات وتريده، وتبغض الشر والسيئات وتكره ذلك[3]، والتي تعتبر الحوادث الحياتية خيرها وشرها ابتلاء ومحنة، وهي تلك النموذج الذي يسعى إليه الإنسان المسلم، وهي التعبير الصادق عن تلك الحالة التي لا يعرف فيها الفرد أمراض الشبهة والشك والشهوة والبغي، وهي النموذج الأكمل للصحة النفسية التي تؤدي إلى الحياة الطيبة في الدنيا وإلى الفوز والنعيم المقيم في الآخرة[4].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

من العلماء من يرى أنها ليست ثلاثة أنفس، بل الصحيح عندهم أنها نفس واحدة، فتارة يغلب عليها الاطمئنان فتوصف بأنها نفس مطمئنة، فيقال: إن هذا الإنسان نفسه مطمئنة، وتارة يغلب عليها وصف اللوم، يفعل المرء الشيء ويلوم نفسه عليه، فيقال: هذا الإنسان نفسه لوامة، وتارة يغلب عليه السوء والأمر بالسوء، فهي نفس واحدة تتصف بهذه الصفة تارة، وبهذه تارة، وهذه تارة، ولا تكون ثلاثة أنفس، وهذا هو الصحيح من أقوال العلماء[5].

الخلاصة: إذا كانت النفس تحت أمر الله تعالى، وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت مطمئنة، وإذا لم يتم سكونها وصارت مدافعة لشهوات النفس أو معترضة عليها سميت لوامة؛ لأنها تلوم صاحبها على تقصيرها في عبادة مولاها، وإن تركت الاعتراض وأذعنت لمقتضى الشهوات ودواعي الشيطان سميت أمارة بالسوء.

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ٤٧٧.
(٢) أدب الدنيا والدين، الماوردي ص ٤٥٣.
(٣) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٢٤٣.
(٤) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٩/ ٢٩٤.
(٥) انظر: المصدر السابق.

## مسؤولية النفس

### أولًا: تكليف النفس بقدر وسعها:

جاء هذا المعنى في كثير من الآيات، ويتضح ذلك مما يلي:

قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:٢٨٦].

معنى الآية: ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾: إلا طاقتها وقدرتها؛ لأن التكليف لا يرد إلا بفعلٍ يقدر عليه المكلف، أي: لا يكلفها إلا ما يتسع فيه طوقه ويتيسر عليه دون مدى غاية الطاقة والمجهود، فلا يكلفها ما لا قدرة لها عليه لاستحالته، ولا ما يثقل عليها أداؤه، وتحمل المكروه، ولها ما كسبت من طاعة وعليها ما اكتسبت من معصية[(١)].

والوسع هو الطاقة والاستطاعة، والمراد به هنا ما يطاق ويستطاع، والمستطاع هو ما اعتاد الناس قدرتهم على أن يفعلوه إن توجهت إرادتهم لفعله مع السلامة وانتفاء الموانع، وهذا دليلٌ على عدم وقوع التكليف بما فوق الطاقة في أديان الله تعالى؛ لعموم ﴿نَفْسًا﴾ في سياق النفي؛ لأن الله تعالى ما شرع التكليف إلا للعمل واستقامة أحوال الخلق، فلا يكلفهم ما لا يطيقون فعله، وقد امتازت شريعة الإسلام باليسر والرفق ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨].

ومن قواعد الفقه العامة «المشقة تجلب التيسير»[(٢)].

ويتضح هذا المعنى أكثر من خلال معرفتنا لسبب نزول الآية، كما جاء في العديد من كتب الحديث:

« عن ابن عباسٍ قال: (لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٤].

**قال: دخل قلوبهم منها شيءٌ لم يدخل قلوبهم من شيءٍ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (قولوا: سمعنا وأطعنا وسلمنا) قال: فألقى الله الإيمان في قلوبهم، فأنزل الله تعالى:** ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]) **قال: قد فعلت** (﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]) **قال: قد فعلت** (﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ٢٨٦﴾ [البقرة:٢٨٦]) **قال: قد فعلت**)[(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٢٥٥، الكشاف، الزمخشري ١/ ٣٣٢.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ١٣٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان قوله تعالى: (وإن تبدوا ما في أنفسكم)، رقم ١٢٦، ١/ ١١٦.

﴿أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٣٣].

هذه الآية جاءت بصيغة: ﴿لَا تُكَلَّفُ﴾:قال المفسرون: وعلى المولود له، يعني: الأب، أي: على الزوج أجر الرضاع للمرأة المطلقة وطعامها وكسوتها إذا أرضعت الولد ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بما يعرفون أنه عدلٌ على قدر الإمكان وهو معنى قوله: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ لا تلزم نفسٌ إلا ما يسعها، يعني: لا يجب على الأب من النفقة والكسوة إلا مقدار طاقته، وعلى قدر الميسرة[(١)].

واعتبر الشوكاني قوله: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ هو تقييدٌ بالمتعارف عليه، حيث قال: « ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: هذه النفقة والكسوة الواجبتان على الأب بما يتعارفه الناس لا يكلف منها إلا ما يدخل تحت وسعه وطاقته، لا ما يشق عليه ويعجز عنه»[(٢)].

الخلاصة: لاحظنا أن تكليف النفس بوسعها وبما تطيقه جاء في شتى الجوانب الحياتية العملية، كما تبين من خلال تفسير الآيات السابقة، سواء أكان ذلك في المعاملات بين الناس أو النفقة أو العبادات أو الكيل والميزان أو غيرها، وهذا يدلل على يسر وسماحة شرع الإسلام، ومدى توافقه مع فطرة الإنسان؛ وبالتالي يدلل على رحمة الله تعالى بعباده ورأفته بهم، وهو ما أكدته الآيات السابقة، وهي نصٌّ على أنه تعالى لا يكلف العبد ما لا يطيقه، بل مع ما يتناسب ويتوافق مع قدرته وإمكانه.

## ثانيًا: تحمل النفس لمسؤولية أعمالها خيرًا أو شرًا:

الآيات التي تحمل معنى هذا العنوان هي آيات مكية، وسبب ذلك أن القرآن المكي أصلًا جاء لغرس العقيدة الصحيحة في النفوس، وبيان أن عمل كل إنسان مرهون بذاته، فهو الذي يقرر ماذا يعمل؟ وبالتالي عليه تحمل نتيجة عمله سواء في الخير أو الشر.

قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت:٤٦].

عن معنى الآية وما فيها من بلاغة، يقول القرطبي: « قوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ شرطٌ، وجوابه: ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ والله عز وجل مستغنٍ عن طاعة العباد، فمن أطاع فالثواب له، ومن أساء فالعقاب عليه ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ نفى الظلم عن نفسه عز وجل قليله وكثيره،

(١) انظر: الوجيز، الواحدي ص ١٧٢.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٢٨١.

وإذا انتفت المبالغة انتفى غيرها، دليله قوله الحق: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا﴾ [يونس:٤٤]»[١].

وقال تعالى: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾ [الإسراء:٧].

يقول تعالى ذكره لبني إسرائيل فيما قضى إليهم في التوراة: إن أحسنتم يا بني إسرائيل، فأطعتم الله وأصلحتم أمركم ولزمتم أمره ونهيه أحسنتم وفعلتم ما فعلتم من ذلك لأنفسكم؛ لأنكم إنما تنفعون بفعلتكم ما تفعلون من ذلك أنفسكم في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فإن الله يدفع عنكم من بغاكم سوءًا، وينمي لكم أموالكم، ويزيدكم إلى قوتكم قوةً، وأما في الآخرة فإن الله سبحانه وتعالى يثيبكم به جنانه، ومعنى ﴿فَلَهَاۚ﴾ فإليها، والمعنى: وإن عصيتم الله وركبتم ما نهاكم عنه حينئذٍ، فإلى أنفسكم تسيئون، لأنكم تسخطون بذلك على أنفسكم ربكم، فيسلط عليكم في الدنيا عدوكم، ويمكن منكم من بغاكم سوءًا، ويخلدكم في الآخرة في العذاب المهين[٢].

وعن معنى ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ﴾، قال ابن عاشور: «أننا نرد لكم الكرة لأجل التوبة وتجدد الجيل وقد أصبحتم في حالة نعمةٍ، فإن أحسنتم كان جزاؤكم حسنًا وإن أسأتم أسأتم لأنفسكم، فكما أهلكنا من قبلكم بذنوبهم فقد أحسنا إليكم بتوبتكم، فاحذروا الإساءة كيلا تصيروا إلى مصير من قبلكم، وإعادة فعل أحسنتم تنويهٌ فلم يقل: إن أحسنتم فلأنفسكم، وأسلوب إعادة الفعل عند إرادة تعلق شيءٍ به أسلوبٌ عربيٌ فصيحٌ يقصد به الاهتمام بذلك الفعل »[٣].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ١٠٨﴾ [يونس:١٠٨].

يقول تعالى آمرًا لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبر الناس أن الذي جاءهم به من عند الله هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه، ومن ضل عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه، ويبين لكم الرسول صلى الله عليه وسلم أنه غير موكلٍ بكم حتى تكونوا مؤمنين به، وإنما أنا نذيرٌ لكم، والهداية على الله تعالى[٤].

ومعنى قوله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه القرآن، والثاني: محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يبق لكم عذر، فمن اهتدى بالإيمان

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٣٧٠.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٤٧٨.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٣٣.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٠٠.

والمتابعة فإنما يهتدي لنفسه؛ لأن نفعه لها، ومن ضل بالكفر بهما فإنما يكون وبال ضلاله على نفسه ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٍ﴾ أي: في منعكم من اعتقاد الباطل، ولست بحفيظ عليكم من الهلاك كما يحفظ الوكيل المتاع من الهلاك، ولست موكول إلى أمركم، وإنما أنا بشير ونذير [(١)].

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٣٥٤. أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٢٦.

## من أمراض النفس الإنسانية

إن أمراض النفس الإنسانية متنوعة فمنها ما يتعلق بالجانب المادي، ومنها بالجانب المعنوي.

### أولًا: الشح:

ومما جاء في الحديث عن ذم الشح والتحذير منه: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (**اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم**) [(٢)].

وعن عبد الله بن عمرٍو رضي الله عنهم قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (**إياكم والشح، فإنما هلك من كان قبلكم بالشح، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا**) [(٣)].

وبين الفَخْرُ الرازي أن الشح من صفات النفس، حيث قال: «واعلم أن الفرق بين الشح والبخل هو أن البخل نفس المنع،

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، ٤/ ١٩٩٦، رقم ٢٥٧٨.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، بابٌ في الشح، ٢/ ١٣٣، رقم ١٦٩٨.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٥٢١، رقم ٢٦٧٨.

والشح هو الحالة النفسانية التي تقتضي ذلك المنع، فلما كان الشح من صفات النفس لا جرم قال تعالى: ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون الظافرون بما أرادوا »[1].

**ذكر الشح:**

جاء ذكر الشح في القرآن الكريم في العديد من الآيات.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر:٩].

أخرج البخاري في صحيحه: **(عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رجلًا أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فبعث إلى نسائه فقلن: ما معنا إلا الماء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من يضم أو يضيف هذا) فقال رجلٌ من الأنصار: أنا، فانطلق به إلى امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياني، فقال: هيئي طعامك، وأصبحي سراجك، ونومي صبيانك إذا أرادوا عشاءً، فهيأت طعامها، وأصبحت سراجها، ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته، فجعلا يريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين، فلما أصبح غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: (ضحك الله الليلة، أو عجب، من فعالكما) فأنزل الله:** ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾)[2].

وشح النفس: هو كثرةُ طمعها، وضبطها على المال، والرغبة فيه، وامتداد الأمل هذا جماع شح النفس، وهو داعية كل خلق سوء، وشح النفس فقرٌ لا يذهبه غنى المال، بل يزيده[3].

وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا۟ اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝١٦﴾ [التغابن:١٦].

المعنى: أخبر الله سبحانه وتعالى بأن الأموال والأولاد فتنة، ثم أمرهم سبحانه وتعالى بالتقوى والطاعة فقال: فاتقوا الله ما أطقتم، وبلغ إليه جهدكم، واسمعوا ما تؤمرون به، وأطيعوا الأوامر، أي: اصغوا إلى ما ينزل عليكم وأطيعوا لرسوله فيما يأمركم وينهاكم.

وأنفقوا من أموالكم التي رزقكم الله

---

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٥٠٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب قول الله: (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)، ٥/ ٣٤، رقم ٣٧٩٨.

(٣) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ٥/ ٤١٠.

إياها في وجوه الخير، ولا تبخلوا بها، أي: ائتوا في الإنفاق خيرًا لأنفسكم، أو قدموا خيرًا لها، والظاهر في الآية الإنفاق مطلقًا من غير تقييدٍ بالزكاة الواجبة، وقيل: المراد زكاة الفريضة، أو النافلة، أو النفقة في الجهاد، ومن يوق شح نفسه، فيفعل ما أمر به من الإنفاق، ولا يمنعه ذلك منه، فأولئك هم الظافرون بكل خيرٍ، الفائزون بكل مطلبٍ(١).

وعلى من تكون وجوه الإنفاق في قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ قال ابن كثير: « وابذلوا مما رزقكم الله على الأقارب والفقراء والمساكين وذوي الحاجات، وأحسنوا إلى خلق الله كما أحسن إليكم، يكن خيرًا لكم في الدنيا والآخرة، وإن لا تفعلوا يكن شرًا لكم في الدنيا والآخرة »(٢).

## ثانيًا: الوسوسة:

جاء ذكر الوسوسة في الحديث كما في قوله صلى الله عليه وسلم: **(إن الله تجاوز لأمتي عما وسوست، أو حدثت به أنفسها، ما لم تعمل به أو تكلم)**(٣).

وجاء ذكر الوسوسة في القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق:١٦].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ والإنسان يعم جميع الناس ولكن المقصود منهم أولا المشركون؛ لأنهم المسوق إليهم هذا الخبر(٤) ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ أي: ما يختلج في سره وقلبه وضميره، وفي هذا تعريضٌ بالإنذار وزجرٌ عن المعاصي التي يستخفي بها.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ هو حبل العاتق وهو ممتدٌ من ناحية حلقه إلى عاتقه، وهما وريدان عن يمينٍ وشمالٍ، أو الوريد: الوتين وهو عرقٌ معلقٌ بالقلب، وهذا تمثيلٌ للقرب، أي: نحن أقرب إليه من حبل وريده الذي هو منه، وليس على وجه قرب المسافة، وقيل: أي ونحن أملك به من حبل وريده مع استيلائه عليه، وقيل: أي: ونحن أعلم بما توسوس به نفسه من حبل وريده الذي هو من نفسه؛ لأنه عرقٌ يخالط القلب، فعلم الرب أقرب إليه من علم القلب.(٥)

وفائدة الإخبار بأن الله يعلم ما توسوس به نفس كل إنسانٍ: التنبيه على سعة علم

(١) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٤٩٤، فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٢٨٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٤١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان، باب إذا حنث ناسيًا في الأيمان، ٨/ ١٣٥، رقم ٦٦٦٤.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٩٩.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٨-٩.

الله عز وجل بأحوالهم كلها، فإذا كان يعلم حديث النفس فلا عجب أن يعلم ما تنقص الأرض منهم، والإخبار عن فعل الخلق بصيغة الماضي ظاهرٌ، وأما الإخبار عن علم ما توسوس به النفس بصيغة المضارع فللدلالة على أن تعلق علمه سبحانه وتعالى بالوسوسة متجددٌ غير منقضٍ ولا محدودٍ؛ لإثبات عموم علم الله سبحانه وتعالى، والكناية عن التحذير من إضمار ما لا يرضي الله.

«ومعنى توسوس: تتكلم كلامًا خفيًا همسًا، ومصدره الوسواس، والوسوسة أطلقت هنا مجازًا على ما يجول في النفس من الخواطر والتقديرات والعزائم؛ لأن الوسوسة أقرب شيءٍ تشبه به تلك الخواطر وأحسن ما يستعار لها؛ لأنها تجمع مختلف أحوال ما يجول في العقل من التقادير وما عداها من نحو ألفاظ التوهم»[(١)].

وعن الآثار المترتبة على الإنسان من علم الله تعالى بوسوسة النفس، قال العثيمين: «وإذا كان الله يعلم ما توسوس به النفس فهذا العلم يوجب لنا مراقبة الله سبحانه وتعالى، وأن لا نحدث أنفسنا بما يغضبه وبما يكره، فعلينا أن يكون حديث نفوسنا كله بما يرضيه؛ لأنه يعلم ذلك، أفلا يليق بنا أن نستحي من ربنا عز وجل أن توسوس نفوسنا بما لا يرضاه؟!»[(٢)].

## ثالثًا: التسويل:

جاء ذكر التسويل في القرآن الكريم بصيغ عدة، كلها تدور حول المعنى السابق، ويتضح ذلك مما يلي:

كما في قوله تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يوسف:١٨].

يقول تعالى مخبرًا عن الذي اعتمده إخوة يوسف بعدما ألقوه في غيابة الجب: إنهم رجعوا إلى أبيهم في ظلمة الليل يبكون، ويظهرون الأسف والجزع على يوسف، وقالوا معتذرين عما وقع فيما زعموا: إنا ذهبنا نترامى، وتركنا يوسف عند ثيابنا وأمتعتنا فأكله الذئب، وهو الذي كان قد حذر منه، ونحن نعلم أنك لا تصدقنا حتى لو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك؟! لأنك خشيت أن يأكله الذئب، فأكله.

وجاءوا على قميصه بدمٍ مكذوبٍ مفترى، وهو أنهم عمدوا إلى سخلة فذبحوها، ولطخوا ثوب يوسف بدمها، موهمين أن هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب، ولكنهم

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٩٩-٣٠٠.

(٢) تفسير القرآن الكريم، الحجرات، الحديد، ابن عثيمين ص ٨٩.

نسوا أن يخرقوه؛ فلهذا لم يرج هذا الصنيع على نبي الله يعقوب، بل قال لهم معرضًا عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من تمالئهم عليه: بل سولت لكم أنفسكم أمرًا، فسأصبر صبرًا جميلًا على هذا الأمر الذي قد اتفقتم عليه؛ حتى يفرجه الله بعونه ولطفه، والله المستعان على ما تذكرون من الكذب والمحال [1].

ثم إن إخوة يوسف لما ذكروا ذلك الكلام واحتجوا على صدقهم بالقميص المليء بالدم ﴿قَالَ﴾ يعقوب عليه السلام: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾، أي: زينت ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ ففعلتموه به [2].

وقال تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ [يوسف:٨٣].

هذه الآية كنظيرتها السابقة، فلما جاءوا يعقوب وأخبروه بما يجري اتهمهم، وظن أنها كفعلتهم بيوسف، أي: لما كان صنيعهم هذا مرتبًا على فعلهم الأول سحب حكم الأول عليه ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [3].

## رابعًا: الخيانة:

جاء ذكر الخيانة في القرآن الكريم بصيغٍ مختلفة، وفي عدة من الآيات.

قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة:١٨٧].

وقوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ فيه دلالةٌ على أن هذا الذي أحله الله كان حرامًا عليهم، وهو ما يفيده سبب نزول الآية، وجعل النساء لباسًا للرجال، والرجال لباسًا لهن لامتزاج كل واحدٍ منهما بالآخر عند الجماع، كالامتزاج الذي يكون بين الثوب ولابسه، فيستره عن أعين الناس، أو لأن كلًا منهما يستر عيوب الآخر للألفة والطمأنينة التي بينهما، وهو الأرجح.

وقد كنتم تخونون أنفسكم بالمباشرة في ليالي الصوم، وأصل الخيانة: أن يؤتمن الرجل على شيءٍ فلا يؤدي الأمانة فيه، وسماهم خائنين لأنفسهم؛ لأن ضرر ذلك عائدٌ عليهم، ثم تاب الله عليكم

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٧٥.
(٢) انظر: السراج المنير، الشربيني ٢/ ٩٦.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٠٤.

بقبول التوبة، أو بالتخفيف عنكم بالرخصة والإباحة، وعفا عنكم بالعفو من الذنب، وبالتوسعة والتسهيل.

ثم قال: ابتغوا بمباشرة نسائكم حصول ما هو معظم المقصود من النكاح وهو حصول النسل، أو ابتغوا مما كتب لكم من الإماء والزوجات، وكلوا واشربوا إلى سواد الليل، حتى يمتاز الليل عن النهار، وذلك لا يكون إلا عند دخول وقت الفجر، ثم أتموا الصيام إلى الليل، فعند إقبال الليل يفطر الصائم ويحل له الأكل والشرب وغيرهما، ولا تباشروا النساء وأنتم عاكفون في المساجد، وهذه الأحكام حدود الله، وأصل الحد: المنع، ومن ذلك سميت الحدود حدودًا؛ لأنها تمنع أصحابها من العود. ومعنى النهي عن قربانها: النهي عن تعديها بالمخالفة لها، والنهي الوارد ليس في ذات الحدود، بل عن اقترابها في قوله تعالى بعدها: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ والله تعالى كما بين لكم هذه الحدود يبين لكم العلامات الهادية إلى الحق[1].

وأخرج البخاري عن البراء بن عازبٍ رضي الله عنه، قال: (**كان أصحاب محمدٍ صلى الله عليه وسلم إذا كان الرجل صائمًا، فحضر الإفطار، فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي، وإن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائمًا، فلما حضر الإفطار أتى امرأته، فقال لها: أعندك طعامٌ؟ قالت: لا ولكن أنطلق فأطلب لك، وكان يومه يعمل، فغلبته عيناه، فجاءته امرأته، فلما رأته قالت: خيبةً لك، فلما انتصف النهار غشي عليه، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ ففرحوا بها فرحًا شديدًا، ونزلت: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾**)[2].

وأخرج أيضًا عنه رضي الله عنه: (**لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجالٌ يخونون أنفسهم، فأنزل الله ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾**)[3].

وجاء العتاب في قوله تعالى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾.

وفي ذلك يتساءل الطبري: وما هذه الخيانة التي كان القوم يختانونها أنفسهم، التي تاب الله عز وجل منها عليهم فعفا عنهم؟!

ثم يجيب بنفسه قائلًا: كانت خيانتهم

---

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٢١٤-٢١٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصيام، باب قول الله جل ذكره: (أحل لكم ليلة الصيام)، ٣/ ٢٨، رقم ١٩١٥.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قول الله جل ذكره: (أحل لكم ليلة الصيام)، ٦/ ٢٥، رقم ٤٥٠٨.

أنفسهم التي ذكرها الله في شيئين، أحدهما: جماع النساء، والآخر: المطعم والمشرب في الوقت الذي كان حرامًا ذلك عليهم[1].

ويدلل على إجابته بقول أسنده لكثيرين أن ناسًا من المسلمين أصابوا النساء والطعام في رمضان بعد العشاء، منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ورجل من الأنصار، فشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾[2].

ومعنى العتاب في قوله: ﴿تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: تخونونها بالمباشرة في ليالي الصوم، فالاختيان هنا معبرٌ به عما وقعوا فيه من المعصية بالجماع، وبالأكل بعد النوم، وكان ذلك خيانةً لأنفسهم؛ لأن وبال المعصية عائدٌ على أنفسهم، فكأنه قيل: تظلمون أنفسكم وتنقصون حقها من الخير، فتستأثرون أنفسكم فيما نهيتم عنه، بقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: قبول التوبة من خيانتهم لأنفسهم، فتجاوز عنكم وعفا عنكم ولم يعاقبكم بما فعلتم، والتخفيف عنهم بالرخصة والإباحة[3].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٤٩٣.
(٢) انظر: المصدر السابق ٣/ ٤٩٦.
(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٢١٣، تفسير السمرقندي ١/ ١٢٤، فتح القدير، الشوكاني ١/ ٢١٤.

والعتاب أيضًا في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: إرادة اتقائهم الوقوع في المخالفة؛ لأنه لو لم يبين لهم الأحكام لما اهتدوا لطريق الصواب، أو لعلهم يلتبسون في الإتيان بالمأمورات على وجهها الصحيح، إذ لو لم يبين الله لهم؛ لأتوا بعباداتٍ غير مستكملةٍ، وهم وإن كانوا معذورين عند عدم البيان، وغير مؤاخذين بإثم التقصير إلا أنهم لا يبلغون صفة التقوى[4].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾ [النساء:١٠٥-١٠٧].

المعنى: ولا تجادل يا محمد صلى الله عليه وسلم فتخاصم عن الذين يخونون أنفسهم، يجعلونها خونةً بخيانتهم ما خانوا من أموال من خانوه ماله وهم بنو أبيرقٍ، فلا تخاصم عنهم من يطالبهم بحقوقهم، وما خانوه فيه من أموالهم، فالله لا يحب من كان من صفته خيانة الناس في أموالهم، وركوب الإثم في ذلك وغيره مما حرمه الله عليه[5].

و﴿يَخْتَانُونَ﴾ بمعنى يخونون، وهو

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ١٨٦.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٤٧٠.

افتعالٌ دالٌ على التكلف والمحاولة لقصد المبالغة في الخيانة، ومعنى خيانتهم أنفسهم: أنهم بارتكابهم ما يضر بهم كانوا بمنزلة من يخون غيره كقوله: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧].

وكذلك أنفسهم هنا: بمعنى بني أنفسهم، أي: بني قومهم، كقوله: ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ﴾ [البقرة:٨٥].

أي: الذين يختانون ناسًا من أهلهم وقومهم[١].

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ وهو طعمة، يعني: مخاصمًا عنهم، أي: لا تكن معينًا مدافعًا عنه، واستغفر الله مما هممت به من معاقبة اليهودي، وقال مقاتلٌ: واستغفر الله من جدالك عن طعمة، إن الله كان غفورًا رحيمًا[٢].

وفي هذه الآية تشريف للرسول صلى الله عليه وسلم، وتفويض الأمور إليه بقوله: لتحكم بين الناس بما أراك الله، وتقويم أيضًا على الجادة في الحكم، وتأنيب على قبول ما رفع إليه في أمر بني أبيرق بسرعة[٣].

وهذه الآيات وما بعدها نزلت في طعمة ابن أبيرقٍ، سرق درعًا في جراب فيه دقيقٌ لقتادة بن النعمان، وخبأها عند يهوديٍ، فحلف طعمة ما لي بها علمٌ، ورماه بالسرقة، فاتبعوا أثر الدقيق إلى دار اليهودي، فقال اليهودي: دفعها إلي طعمة، فسأل قوم طعمة النبي صلى الله عليه وسلم أن يجادل عن صاحبهم وأن يبريه[٤].

وعن قتادة:« ذكر لنا أن هؤلاء الآيات أنزلت في شأن طعمة بن أبيرق، وفيما هم به نبي الله صلى الله عليه وسلم من عذره، وبين الله شأن طعمة بن أبيرق، ووعظ نبيه وحذره أن يكون للخائنين خصيمًا »[٥].

وجاء العتاب في توجيه النهي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بألا يكون خصيمًا لأجل الخائنين، أي: مدافعًا عنهم، ويعد هذا عتاب؛ لأن أسلوبه شديد في موضعيه، وخرج مخرج التحذير مما يخشى وقوعه لاحقًا لو تكرر.

## خامسًا: المخادعة:

قال تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ [البقرة:٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢].

والمخادعة: إظهار غير ما في النفس.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ١٩٤.
(٢) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ١/ ٤٧٦، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٦٩٩.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٠٨.
(٤) انظر: الوجيز، الواحدي ص٢٨٧، البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٥٥.
(٥) جامع البيان، الطبري ٩/ ١٨٢.

وذلك أن المنافقين أبطنوا الكفر وأظهروا الإيمان، وإذا خادعوا المؤمنين فقد خادعوا الله، ونسب ذلك إلى الله تعالى من حيث أن معاملة الرسول كمعاملته، وذلك كقوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾[الفتح:١٠].

وعلى هذا يوجه مفهوم المخادعة أن معناه أنهم يقدرون في أنفسهم أنهم يخادعون الله، والله هو الخادع لهم، أي المجازي لهم جزاء خداعهم، وهنا يجدر التنبيه على أمرين:

**أحدهما**: فظاعة فعلهم فيما تجرؤوه من الخديعة، وأنهم بمخادعتهم الرسول والمؤمنين يخادعون الله.

**والثاني**: التنبيه على عظم المقصود بالخداع، وتنبيهًا على عظم الرسول صلى الله عليه وسلم، وأن معاملته كمعاملة الله، وعظم أوليائه [(١)].

وقوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾ أي: يفعلون فعل المخادع، فالمخادعة تكون بين اثنين، فيظهرون خلاف ما يسرون، وكذلك معناه يخدعون رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصورة صنيعهم مع الله سبحانه وتعالى من إظهار الإيمان واستبطان الكفر، وصنع الله معهم بإجراء أحكام المسلمين عليهم، وهم عنده أخبث الكفار وأهل الدرك الأسفل من النار؛ استدراجًا لهم.

ومعنى ﴿وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾: أي: ما تحل عاقبة الخداع إلا بهم، فدائرة الخداع راجعة إليهم وضررها يحيق بهم ووبال فعلهم راجع عليهم، وأنهم في ذلك خدعوا أنفسهم لما غروها بذلك، فخدعتهم أنفسهم حيث حدثتهم بالأماني الفارغة وحملتهم على مخادعة من لا تخفى عليه خافية، والنفس ذات الشيء وحقيقته، فالمراد بالأنفس هاهنا ذواتهم.

﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾: لا يحسون لذلك لتمادي غفلتهم، والشعور: الإحساس، أي: لا يشعرون أنهم يخدعون أنفسهم [(٢)].

وعن اعتقاد المنافقين بأنهم ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وكيف رد الله عليهم، قال ابن كثير:

«ولهذا قابلهم على اعتقادهم ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بقوله: ﴿وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ يقول: وما يغرون بصنيعهم هذا ولا يخدعون إلا أنفسهم، وما يشعرون بذلك من أنفسهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء:١٤٢]» [(٣)].

---

(١) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص ٧١٢. تاج العروس، الزبيدي، ٢٠/ ٤٩١.

(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٤٤. التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٧١.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٧٧.

## سادسًا: اتباع الهوى:

غالبًا ما يجيء ذكر الهوى في القرآن الكريم في مقام الذم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة:٨٧].

يصف الله جل جلاله بني إسرائيل بالعتو والعناد والمخالفة، والاستكبار على الأنبياء، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم، فذكر أنه آتى موسى التوراة فحرفوها وبدلوها، وخالفوا أوامرها وأولوها.

وأرسل الرسل والنبيين من بعده الذين يحكمون بشريعته، فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء عليه السلام أسوأ المعاملة، ففريقًا يكذبونه، وفريقًا يقتلونه، وما ذاك إلا لأنهم كانوا يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم وبإلزامهم بأحكام التوراة التي قد تصرفوا في مخالفتها؛ فلهذا كان يشق ذلك عليهم، فيكذبونهم، وربما قتلوا بعضهم[1].

وعن سبب التعبير بالهوى عن رفضهم للحق، قال أبو السعود: «والتعبير عنه بذلك؛ للإيذان بأن مدار الرد والقبول عندهم: هو المخالفة لأهواء أنفسهم والموافقة لها لا شيء آخر»[2].

والتعبير عن القتل بالمضارع مع كونه كالتكذيب وقع في الماضي فيه نكتة بلاغية وهي: تصوير جرم القتل الشنيع واستحضار هيئته المنكرة، كأنه وقع في الحال؛ للمبالغة في النعي عليهم وتوبيخهم، حيث أفادت الآية أنهم بلغوا من الفساد واتباع أهوائهم أعلى درجة بهم في الضلال، حتى لم يعد يؤثر في قلوبهم وعظ الرسل وهديهم، بل صار يغريهم بزيادة الكفر والتكذيب وقتل أولئك الهداة الأخيار[3].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [المائدة:٧٠].

عن مصير الرسل الذين أرسلوا إلى بني إسرائيل، يتساءل ويجيب صاحب تفسير المنار: «ماذا كان حظ أولئك الرسل من بني إسرائيل؟ كان حظهم منهم ما أفاده الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ فاتبعتم الهوى وأطعتم الشهوات، وعصيتم الرسل واحتميتم عليهم أن أنذروكم ودعوكم إلى أحكام كتابكم»[4].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٢١.

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ١٢٧.

(٣) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٦/ ٣٩٨.

(٤) المصدر السابق ١/ ٣١٢.

ويفيد قوله: ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ﴾ الإشارة إلى زيادة تفظيع حالهم من أنهم يكذبون الرسل أو يقتلونهم، ولا يلتمسون لأنفسهم فيها عذرًا من تكليفٍ بمشقةٍ فادحةٍ، كما فعل المشركون من العرب في مجيء الإسلام، بل لمجرد مخالفة هوى أنفسهم بعد أن أخذ عليهم الميثاق فقبلوه، فتتعطل بتمردهم فائدة التشريع وفائدة طاعة الأمة لهداتها(١).

الفائدة: هذا تعليمٌ عظيمٌ للأمم أن تكون سائرةً في طريق إرشاد علمائها وهداتها، وأنها إذا أرادت حملهم على مسايرة أهوائها فقد حق عليهم الخسران كما حق على بني إسرائيل؛ لأن في ذلك قلبًا للحقائق ومحاولة انقلاب التابع متبوعًا والقائد مقودًا، وأن قادة الأمم وعلماءها إذا سايروا الأمم على هذا الخلق كانوا غاشين لهم، وزالت فائدة علمهم وحكمتهم واختلط الحابل بالنابل(٢).

## سابعًا: نسيان النفس من الأمر والنهي:

قال تعالى: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة:٤٤].

تفسير الآية: هذا خطاب لبني إسرائيل في أمرٍ يفعله علماؤهم، ويرضى به سائرهم وأخلافهم، فيلامون جميعًا عليه، إذ هو عيب فيهم سلفًا وخلفًا، وهو عيب الناس إذا ضعف وازع الدين، وهو أن يأمروا الناس بالحقائق الدينية، ولا يأخذون بهديها، وتلك إحدى صفات النفاق، فيكون قولهم مخالفا لفعلهم ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف:٣].

ولذا خاطبهم الله سبحانه وتعالى مستنكرًا تلك الحال فيهم، والاستفهام هنا إنكاري لإنكار واقع حالهم من أنهم يأمرون الناس بالخير، وينسون أنفسهم، أي: يتركونها من غير توجيه إليه، فيكونون بمنزلة من ينسونها، ولا يفكرون في أمرها، مع أن دواعي التذكير والتفكر في ذات أنفسهم قائمة؛ لأنهم يتلون الكتاب، فالاستنكار للحال التي يجتمع فيها الأمر بالخير والحث عليه مع ترك أنفسهم لا تفعلها، وكأنهم نسوها ولم يذكروها.

ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ والاستفهام هنا للتنبيه إلى مناقضة حالهم للعقل المدرك، فمعنى الاستفهام: أن حالهم هي حال من لا عقل له ولا إدراك، و(ألا) هنا: للاستفهام والتنبيه إلى نفي ما وراءه، والفاء فاء السببية، أي بسبب هذه الحال يحكم عليهم بأنهم لا يعقلون(٣).

وعن معنى نسيان النفس هنا، قال

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٢٧٤.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/ ٢١٥.

الطبري: «ومعنى نسيانهم أنفسهم في هذا الموضع نظير النسيان الذي قال جل ثناؤه: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧].

بمعنى: تركوا طاعة الله فتركهم الله من ثوابه»[١]. وأما الألف في ﴿أَتَأْمُرُونَ﴾ يرى الزجاج أنها ألف استفهام، ومعناه: التقرير والتوبيخ ههنا، ثم بين أن المقصود في (البر) هاهنا ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه التمسك بكتابهم، فقد كانوا يأمرون أتباعهم بالتمسك بكتابهم ويتركون هم التمسك به.

والثاني: اتباع محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأن جحدهم النبي صلى الله عليه وسلم هو أصلًا تركهم التمسك بكتابهم.

والثالث: الصدقة، حيث كانوا يأمرون ببذلها وكانوا يضنون بها؛ لأنهم وصفوا بقساوة قلوبهم، وأكلوا الربا والسحت[٢].

وعن خطورة هذا الفعل - خاصة من العلماء - قال الشوكاني: «وأشد ما قرع الله في هذا الموضع من يأمر بالخير ولا يفعله من العلماء الذين هم غير عاملين بالعلم، فاستنكر عليهم أولًا أمرهم للناس بالبر مع نسيان أنفسهم في ذلك الأمر الذي قاموا به في المجامع، ونادوا به في المجالس إيهامًا للناس بأنهم مبلغون عن الله ما تحملوه من حججه، ومبينون لعباده ما أمرهم ببيانه، وموصلون إلى خلقه ما استودعهم وائتمنهم عليه، وهم أترك الناس لذلك وأبعدهم من نفعه وأزهدهم فيه»[٣].

وليس الأمر بالبر وفعله مقتصرًا على اليهود، بل على كل مسلم، حيث جاء في الحديث الصحيح عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(رأيت ليلة أسري بي رجالًا تقرض شفاههم بمقارض من نارٍ، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟)، فقال: (الخطباء من أمتك، يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون)**[٤].

(١) جامع البيان، الطبري ١/ ٦١٥.
(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ١٢٥.

(٣) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٩٢.
(٤) أخرجه أحمد في المسند، رقم ٢١٩٧، ٤/ ٧٧.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ١/ ٥٨٥، رقم ٢٩١.

## حفظ النفس وبذلها

### أولًا: حفظ النفس:

١. النهي عن قتلها.

جاء النهي عن قتل النفس في عدة آيات.

قال تعالي: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾ [الإسراء:٣٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ يعني: إلا بإحدى ثلاث مواضع: إذا قتل أحدًا فيقتص به، أو زنى وهو محصن فيرجم، أو يرتد فيقتل، ومن قتل مظلومًا فقد جعلنا لوليه سبيلًا وحجة عليه، فإن شاء قتله، وإن شاء عفا عنه، وإن شاء أخذ الدية إذا اصطلحا، ولا يسرف في القتل، أي: لا يقتل غير القاتل حمية، ولا يقتل بعد ما عفا أو أخذ الدية، إنه كان معانًا من الله تعالى فقد جعل الأمر إليه في القود [١].

وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾: «علة النهي على الاستئناف، والضمير إما للمقتول فإنه منصور في الدنيا بثبوت القصاص بقتله وفي الآخرة بالثواب، وإما لوليه، فإن الله تعالى نصره حيث أوجب القصاص له وأمر الولاة بمعونته، وإما للذي يقتله الولي إسرافًا بإيجاب القصاص أو التعزير والوزر على المسرف»[٢].

واختلفوا في هذا الإسراف الذي منع منه ولي القتيل، فالذي عليه أكثر المفسرين:

- لا يقتل غير القاتل، وذلك أنهم كانوا في الجاهلية إذا قتل منهم قتيلٌ لا يرضون بقتل قاتله حتى يقتل أشرف منه.
- أو معناه: إذا كان القاتل واحدًا فلا يقتل جماعةً بدل واحدٍ، وكان أهل الجاهلية إذا كان المقتول شريفًا لا يرضون بقتل القاتل وحده حتى يقتلوا معه جماعةً من أقربائه.
- أو معناه: لا يمثل بالقاتل[٣].

والعتاب جاء هنا لإبطال عادة جاهلية، وهي قتل البريء بجريرة آخر.

وقد نقل الطبري عن ابن زيد: « إن العرب كانت إذا قتل منهم قتيل، لم يرضوا أن يقتلوا قاتل صاحبهم، حتى يقتلوا أشرف من الذي قتله، فقال الله جل ثناؤه: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾ ينصره وينتصف من حقه ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ﴾ يقتل بريئًا[٤] ».

وذكر أيضًا قولًا آخر في هذا الشأن: «كان المشركون يغتالون أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فقال الله جل جلاله:

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٣١٠.

(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٢٥٤.

(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ١٣٢.

(٤) انظر: المصدر السابق ١٧/ ٤٣٠.

من قتلكم من المشركين، فلا يحملنكم قتله إياكم على أن تقتلوا له أبًا أو أخًا أو أحدًا من عشيرته، وإن كانوا مشركين، فلا تقتلوا إلا قاتلكم»[1].

وجاء العتاب أيضًا في قوله: ﴿فَلَا يُسْرِف﴾ وحول هذا يقول أبو حيان: «إنما الظاهر والله أعلم النهي عما كانت الجاهلية تفعله من قتل الجماعة بالواحد، وقتل غير القاتل، والمثلة، ومكافأة الذي يقتل من قتله »[2].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [النساء:٢٩].

أجمل الطبري المعنى في هذه الآية بقوله: «يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾: ولا يقتل بعضكم بعضًا، وأنتم أهل ملةٍ واحدةٍ ودعوةٍ واحدةٍ ودينٍ واحدٍ، فجعل جل ثناؤه أهل الإسلام كلهم بعضهم من بعضٍ، وجعل القاتل منهم قتيلًا في قتله إياه منهم بمنزلة قتله نفسه، إذ كان القاتل والمقتول أهل يدٍ واحدةٍ على من خالف ملتهما »[3].

### ٢. النهي عن ظلمها.

ظلم النفس أنواعٌ مختلفة ودرجات متفاوتة، فقد يكون ظلمها بالشرك الذي لا يغفره الله إذا مات العبد عليه قبل التوبة منه، وقد يكون ظلمها بالمعاصي التي يكون صاحبها تحت المشيئة إذا لم يتب منها، وكل أحدٍ ظلم نفسه على قدر درجته ومنزلته، وظلم النفس إذا أطلق تناول جميع الذنوب فإنها ظلم العبد نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة:٥٤]، وقالت بلقيس: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل:٤٤]، وقال آدم عليه السلام: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف:٢٣].

ثم قد يقرن ببعض الذنوب كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [آل عمران:١٣٥][4].

و«ظلم النفس هو فعل ما نهى الله عنه وتوعد عليه، فإن فعله إلقاءٌ بالنفس إلى العذاب، فكان ظلمًا للنفس»[5].

وجاء النهي عن ظلم النفس في القرآن الكريم في العديد من الآيات.

قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ

(١) انظر: المصدر السابق ١٧/ ٤٤٢.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٧/ ٤٥.
(٣) جامع البيان، الطبري ٦/ ٦٣٧.
(٤) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/ ٦٢.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ١٨٦.

﴿ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [التوبة:٣٦].

وروى الطبري عن ابن عباس أنه فسر ضمير فيهن بالأشهر الاثني عشر فالمعنى عنده: فلا تظلموا أنفسكم بالمعاصي في جميع السنة؛ يعني: أن حرمة الدين أعظم من حرمة الأشهر الأربعة في الجاهلية، ونسب لغيره أن معنى ذلك: فلا تظلموا في الأربعة الأشهر الحرم أنفسكم، والهاء والنون عائدةٌ على الأشهر الأربعة [١].

وهناك من يرى أن المراد كل السنة، فقد أخرج البيهقي عن ابن عباسٍ، قال:« لا تظلموا أنفسكم في كلهن، ثم اختص من ذلك أربعة أشهرٍ فجعلهن حرمًا، وعظم حرماتهن، وجعل الذنب فيهن أعظم، والعمل الصالح بالأجر أعظم »[٢].

والأنفس تحتمل أنها أنفس الظالمين في قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟﴾ أي: لا يظلم كل واحدٍ نفسه.

ووجه تخصيص المعاصي في هذه الأشهر بالنهي: أن الله جعلها مواقيت للعبادة، فإن لم يكن أحدٌ متلبسًا بالعبادة فيها فليكن غير متلبسٍ بالمعاصي، وليس النهي عن المعاصي فيها بمقتضٍ أن المعاصي في غير هذه الأشهر ليست منهيًا عنها، بل المراد أن المعصية فيها أعظم وأن العمل الصالح فيها أكثر أجرًا، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة:١٩٧].

فإن الفسوق منهيٌ عنه في الحج وفي غيره.

وإضافة الأنفس إلى ضمير المخاطبين: للتنبيه على أن الأمة كالنفس من الجسد على حد قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور:٦١].

أي: على الناس الذين فيها على أرجح التأويلين في تلك الآية، والمراد على هذا تأكيد حكم الأمن في هذه الأشهر، أي: لا يعتدي أحدٌ على آخر بالقتال [٣].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران:١٣٥].

البلاغة في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ تم عطف ظلم النفس على فعل الفاحشة مع أن فعل

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٤٤٤.
(٢) انظر: شعب الإيمان، البيهقي، ٥/ ٣٤٠، رقم ٣٥٢٥.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ١٨٦.

الفاحشة داخل في ظلم النفس، ذلك لأنه من أبلغ أنواع ظلم النفس، فالفاحشة نوع من أنواع ظلم النفس، وهو الزنا أو كل كبيرة، فخص بهذا الإثم تنبيهًا على زيادة قبحه، وأريد بظلم النفس ما وراء ذلك من الذنوب[1].

**٣. حفظها من الشبهات والشهوات.**

جاء الأمر من الله تعالى للإنسان باتباع دينه وحفظ النفس من الشبهات والشهوات في العديد من الآيات.

قال تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النجم:٢٣-٢٤].

لما ذكر تعالى ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من الهدى ودين الحق، والأمر بعبادة الله وتوحيده، ذكر بطلان ما عليه المشركون من عبادة من ليس له من أوصاف الكمال شيء، ولا تنفع ولا تضر، وإنما هي أسماء لا حقيقة لها ولا أنزل الله تعالى بها برهانًا ولا حجة، سماها المشركون هم وآباؤهم الجهال الضلال، وابتدعوا لها من الأسماء الباطلة التي لا تستحقها، فخدعوا بها أنفسهم وغيرهم من الناس، فالآلهة التي بهذه الحال لا تستحق العبادة، فكل أمر ما أنزل الله به من حجة وبرهان، فهو باطل فاسد، لا يتخذ دينًا، وهم في أنفسهم ليسوا بمتبعين لبرهانٍ يتيقنون به، وإنما دلهم على قولهم الظن الفاسد، وما تهواه أنفسهم من الشرك والبدع الموافقة لأهويتهم، والظن: ميل النفس إلى أحد معتقدين متخالفين دون أن يكون ميلها بحجة ولا برهان.

وهوى الأنفس: هو إرادتها الملذات لها، فأينما تجد هوى النفس أبدًا تترك الأفضل؛ لأنها مجبولة بطبعها على حب الملذات، بينما العقل والشرع يردعها ويسوقها إلى حسن العاقبة، وقوله: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ فيه توبيخ وإنكار لحالهم ورأيهم، والهدى المشار إليه محمد صلى الله عليه وسلم وشرعه[2].

## ثانيًا: بذل النفس:

**١. بذلها ابتغاء مرضاة الله تعالى.**

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦۚ

(١) انظر: أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، الرازي ص ٥٢.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٢٠١، ٢٠٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨١٩.

﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١﴾ [التوبة:١١١].

المعنى: إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بالجنة وعدًا عليه حقًا، وعدهم الجنة جل جلاله، وحقًّا أن يوفي لهم به في كتبه المنزلة التوراة والإنجيل والقرآن، إذا هم وفوا بما عاهدوا الله فقاتلوا في سبيله ونصرة دينه أعداءه فقتلوا وقتلوا، ومن أحسن وفاءً بما ضمن وشرط من الله؟! فاستبشروا أيها المؤمنون الذين صدقوا الله فيما عاهدتم ببيعكم أنفسكم وأموالكم بالذي بعتموها من ربكم، فإن ذلك هو الفوز العظيم، فما من مسلمٍ ولله في عنقه بيعةٌ وفى بها أو مات عليها في قول الله، إلا وله الجنة، بايعهم الله فأغلى لهم الثمن، فذلك هو الفوز العظيم[(١)].

وعن كيفية شراء الله المؤمنين أنفسهم وأموالهم قال صاحب زاد المسير: «فأما اشتراء النفس فبالجهاد، وفي اشتراء الأموال وجهان: أحدهما: بالإنفاق في الجهاد، والثاني: بالصدقات»[(٢)].

وعن سبب تسمية ذلك بيعًا، قال القرطبي: «سمى ذلك كله بيعًا وشراءً على وجه المجاز، تشبيهًا بعقود الأشرية والبياعات التي تحصل بها الأغراض»[(٣)].

ذكر في أسباب النزول أن الآية نزلت في بيعة العقبة لما بايعت الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانوا سبعين رجلًا، على أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا وأن يمنعوه مما يمنعون أنفسهم، كما يلي:

أخرج الواحدي:(**قال محمد بن كعبٍ القرظي: لما بايعت الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة بمكة، وهم سبعون نفسًا، قال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال: أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم. قالوا: فإذا فعلنا ذلك فماذا لنا؟ قال: الجنة، قالوا: ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل. فنزلت هذه الآية**)[(٤)].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠٧﴾ [البقرة:٢٠٧].

قال الرازي: أكثر المفسرين على أن المراد بهذا الشراء: البيع، وتحقيقه أن المكلف باع نفسه بثواب الآخرة، وهذا البيع هو أنه بذلها في طاعة الله من الصلاة والصيام والحج والجهاد، يبتغي بذلك ثواب الله، فكان ما يبذله من نفسه كالسلعة، وصار الباذل كالبائع، والله كالمشتري، وقد سمى الله تعالى ذلك تجارةً، حيث قال

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥.
(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٣٠٢.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٥١.
(٤) أسباب النزول، الواحدي ص ٢٦٦، رقم ٥٢٩.

سبحانه وتعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [الصف:١٠-١١][1].

ويعتبر الأخفش أن معنى: ﴿يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ من الأضداد، فيقول: «يبيعها، كما تقول: شريت هذا المتاع أي: بعته، وشريته: اشتريته أيضًا، يجوز في المعنيين»[2].

أخرج الحاكم عن عكرمة قال: (لما خرج صهيبٌ مهاجرًا تبعه أهل مكة فنثل كنانته، فأخرج منها أربعين سهمًا، فقال: لا تصلون إلي حتى أضع في كل رجلٍ منكم سهمًا، ثم أصير بعد إلى السيف فتعلمون أني رجلٌ، وقد خلفت بمكة قينتين فهما لكم، وعن أنسٍ نحوه، ونزلت على النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم قال: أبا يحيى ربح البيع قال: وتلا عليه الآية)[3].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠﴾ [الفتح:١٠].

المعنى: إن الذين يبايعونك بيعة الرضوان بالحديبية تحت الشجرة على قتال قريشٍ وأن لا يفروا عند لقاء العدو، ولا يولوهم الأدبار، إنما يبايعون الله، فأخبر سبحانه وتعالى أن هذه البيعة لرسوله صلى الله عليه وسلم هي بيعةٌ له؛ فمن يطع الرسول فقد أطاع الله وذلك لأنهم باعوا أنفسهم من الله بالجنة؛ لأن عقد الميثاق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كعقده مع الله سبحانه وتعالى من غير تفاوتٍ، كأنهم يبايعون الله ببيعتهم نبيه، فمن نقض ما عقد من البيعة فإنما ينقض على نفسه؛ لأن ضرر ذلك راجعٌ إليه لا يجاوزه إلى غيره، ومن أوفى وثبت على الوفاء بما عاهد عليه في البيعة لرسوله فله الأجر العظيم وهو الجنة، وجاء عن مجاهد وغيره: يعني: أعراب غفارٍ ومزينة وجهينة وأسلم وأشجع والدئل، وهم الأعراب الذين كانوا حول المدينة[4].

وعن شدة وقوة هذه البيعة قال السعدي: «حتى إنه من شدة تأكده أنه قال: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: كأنهم بايعوا الله وصافحوه بتلك المبايعة، وكل هذا لزيادة التأكيد والتقوية، وحملهم على الوفاء بها، ولهذا قال: ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ فلم يف بما عاهد الله

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٥/ ٣٥٠.
(٢) معاني القرآن، الأخفش ١/ ١٧٨.
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك، باب ذكر مناقب صهيب بن سنانٍ مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ٣/ ٣٩٨، رقم ٥٧٠٠. وقال عنه: صحيحٌ على شرط مسلمٍ، ولم يخرجاه.
وصححه الألباني في فقه السيرة ص١٥٧.
(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٥٦-٥٧، محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٤٨٧.

عليه ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أي: لأن وبال ذلك راجع إليه، وعقوبته واصلة له »[١].

وكذلك عن أهمية هذه البيعة، قال ابن عاشور: « وفرع قوله: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ على جملة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ فإنه لما كشف كنه هذه البيعة بأنها مبايعةٌ لله ضرورة أنها مبايعةٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، باعتبار رسالته عن الله صار أمر هذه البيعة عظيمًا خطيرًا في الوفاء بما وقع عليه التبايع وفي نكث ذلك، والكلام تحذيرٌ من نكث هذه البيعة وتفظيعٌ له؛ لأن الشرط يتعلق بالمستقبل »[٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف:٢٨].

المعنى: في هذه الآية نهى الله جل جلاله نبيه صلى الله عليه وسلم عن طرد ضعفاء المسلمين وفقرائهم، وأمره أن يصبر نفسه معهم، وأن لا يعدو عيناه عنهم إلى أهل الجاه والمنزلة في الدنيا، فنهاه عن إطاعة الكفرة في ذلك، وبين أن طرد ضعفاء المسلمين الذي طلبه كفار العرب من نبينا صلى الله عليه وسلم، طلبه أيضًا قوم نوحٍ من نوح، فأبى[٣].

ويأتي الزرقاني بنكتة مهمة تعبر عن دقة ملاحظته، فيقول: «ولعلك تلمح معي من وراء هذا العتاب رحمة الرسول بأعدائه، وإخلاصه لدعوته، وتفانيه في وظيفته، وحرصه على هداية الناس أجمعين»[٤].

التوجيه: هو في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتصبر مع المؤمنين، وعدم ترك عنايته بالفقراء منهم، والانتباه إلى غيرهم؛إرادةً لزينة الحياة الدنيا.

**٢. إزهاق النفس في مساخط الله تعالى.**

إزهاق النفس في مساخط الله تعالى جاء في عدة آيات:

قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة:٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [التوبة:٨٥].

يعني بإزهاق النفس في قوله: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾: تخرج أنفسهم، فيموتوا على كفرهم بالله وجحودهم نبوة

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٩٢.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ١٥٩.
(٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٤٧٨.
(٤) مناهل العرفان، الزرقاني ٢/ ٣٩٥.

نبي الله محمدٍ صلى الله عليه وسلم، يقال منه: زَهَقَتْ نفس فلانٍ، وزَهِقَتْ، ويقال: زهق الباطل: إذا ذهب ودرس[(١)].

يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم: ولا تعجبك يا محمد أموال هؤلاء المنافقين وأولادهم، فتصلي على أحدهم إذا مات وتقوم على قبره من أجل كثرة ماله وولده، فإني إنما أعطيته ما أعطيته من ذلك لأعذبه بها في الدنيا بالغموم والهموم، بما ألزمه فيها من المؤن والنفقات والزكوات وبما ينوبه فيها من الرزايا والمصيبات ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾ يقول: وليموت فتخرج نفسه من جسده، فيفارق ما أعطيته من المال والولد، فيكون ذلك حسرةً عليه عند موته ووبالًا عليه حينئذٍ ووبالًا عليه في الآخرة بموته، جاحدًا توحيد الله ونبوة نبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم[(٢)].

فمعنى الآية: أي: لا تستحسن ما أعطيناهم ولا تمل إليه فإنه استدراجٌ، وإنما يريد الله ليعذبهم بها، وقيل: في الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ، والمعنى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة، وقيل: المعنى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الدنيا؛ لأنهم منافقون فهم ينفقون كارهين فيعذبون بها بإخراج الزكاة وبما ينفقون في سبيل الله، وقوله: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾: نصٌّ في أن الله يريد أن يموتوا كافرين، سبق بذلك القضاء[(٣)].

وعن علة إعطائهم ذلك المال وتكثيره لهم، قال الجزائري: «ووجه تعذيبهم بها في الحياة الدنيا أن ما ينفقونه من المال في الزكاة والجهاد، يشعرون معه بألم لا نظير له؛ لأنه إنفاق يعتبرونه ضدهم وليس في صالحهم، إذ لا يريدون نصر الإسلام ولا ظهوره، وزيادة على هذا يموتون وهم كافرون فينتقلون من عذاب إلى عذاب أشد»[(٤)].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٥٠٢.
(٢) انظر: المصدر السابق ١١/ ٦١٥.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١٦٤.
(٤) أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٣٨١.

## النفس يوم القيامة

### أولًا: المحاسبة والمجازاة على الأعمال:

قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ [غافر:١٧].

يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيله يوم القيامة حين يبعث خلقه من قبورهم لموقف الحساب: اليوم يثاب كل عاملٍ بعمله، فيوفى أجر عمله، فعامل الخير يجزى الخير، وعامل الشر يجزى جزاءه [١].

فلما قرر أن الملك لله وحده في ذلك اليوم، أخبر تعالى عن عدله في حكمه بين خلقه، أنه لا يظلم مثقال ذرةٍ من خيرٍ ولا من شرٍ، فكل نفس تجزى بما عملت في الدنيا، وأن الظلم مأمون منه، بل يجزي بالحسنة عشر أمثالها، وبالسيئة واحدةً؛ ولهذا قال: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ لأن الله تعالى ليس بظلام للعبيد، وأن الحساب لا يبطئ؛ لأنه لا يشغله حساب عن حساب فيحاسب الخلق كله في وقت واحد، أي: يحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفسًا واحدةً، وهو أسرع الحاسبين كما قال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان:٢٨][٢].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ [آل عمران:٣٠].

عما تدل عليه فاصلة الآية.

قال الشوكاني:

« وفي قوله: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ دليلٌ على أن هذا التحذير الشديد مقترنٌ بالرأفة منه سبحانه بعباده لطفًا بهم » [٣].

والضمير في قوله: ﴿وَبَيْنَهُۥٓ﴾ على هذا يعود إلى ما عملت من سوءٍ، أو يكون عائدًا إلى يوم أي: تود أنه تأخر ولم يحضر [٤].

### ثانيًا: الشهادة على النفس:

قال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأنعام:١٣٠].

المعنى: أي: يوم نحشر عالم الجن والإنس ثم نقول لهم: ألم يأتكم رسلٌ؟ فيعترفون بما فيه افتضاحهم، ومعنى ﴿مِّنكُمْ﴾ في الخلق والتكليف والمخاطبة، ولما كانت الجن ممن يخاطب ويعقل قال:

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٩٩.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٣٦، مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٢٠٤.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٣٨١.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٢٣.

منكم، وإن كانت الرسل من الإنس وغلب الإنس في الخطاب كما يغلب المذكر على المؤنث، لكن ابن عباسٍ قال:« رسل الجن هم الذين بلغوا قومهم ما سمعوه من الوحي، كما قال: ﴿وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾[الأحقاف:٢٩]» ويؤكد ذلك أنه كان قومٌ من الجن استمعوا إلى نبينا صلى الله عليه وسلم، ثم عادوا إلى قومهم وأخبروهم، فيقال لهم: رسل الله، وإن لم ينص على إرسالهم، وقوله: ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: إن هؤلاء قد غرتهم الحياة الدنيا، فخدعتهم وظنوا أنها تدوم، وخافوا زوالها عنهم إن آمنوا [١].

معنى الشهادة على النفس في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ أي: أقررنا أن الرسل قد بلغونا رسالاتك، وأنذرونا لقاءك، وأن هذا اليوم كائنٌ لا محالة.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: يوم القيامة اعترفوا بكفرهم، ﴿أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ أي: في الدنيا، بما جاءتهم به الرسل، وهذا حين شهدت عليهم الجوارح بالشرك وبما كانوا يعملون [٢].

وقال تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ٢١﴾ [ق:٢١].

المعنى: وجاءت يوم ينفخ في الصور كل نفسٍ ربها، معها سائقٌ يسوقها إلى الله، وشهيدٌ يشهد عليها بما عملت في الدنيا من خيرٍ أو شرٍ [٣].

لكن الطبري أخرج عن ابن عباسٍ، قوله: ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾ قال: « السائق من الملائكة، والشهيد: شاهدٌ عليه من نفسه » [٤].

ونرى أن القولين متقاربان و النص يحتملهما فالملائكة تسوق المذنبين الى العقاب، والجوارح تشهد على هؤلاء إذا انكروا تلك الذنوب و المعاصي.

## ثالثًا: المجادلة عن النفس:

قال تعالى: ﴿۞ يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١١١﴾ [النحل:١١١].

المعنى: يوم تأتي يوم القيامة كل نفسٍ تحاج عن نفسها بما أسلفت في الدنيا من خيرٍ أو شرٍ، أو إيمانٍ أو كفرٍ، وتسعى في خلاصها، لا يهمها إلا ذاتها وشأنها، ولا يغني عنها مال ولا أب ولا ابن ولا أخٌ ولا زوجةٌ ولا شيء ما، وتوفى كل نفسٍ ما عملت في الدنيا من طاعةٍ ومعصيةٍ، وهم لا يفعل بهم إلا ما يستحقونه ويستوجبونه بما

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٨٥- ٨٦.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٤١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٨٧.
(٣) انظر: مصنف ابن أبي شيبة، ٧/ ٢١١، رقم ٣٥٤٢١، الزهد، نعيم بن حماد ٢/ ١٠٦.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤٣٠.

قدموه من خيرٍ أو شرٍ، فلا يجزى المحسن إلا بالإحسان، ولا المسيء إلا بالذي أسلف من الإساءة، لا يعاقب محسنٌ، ولا يبخس جزاء إحسانه، ولا يثاب مسيءٌ إلا ثواب عمله(١).

والنفس الأولى: بمعنى الذات والشخص كقوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة:٤٥].

والنفس الثانية: ما به الشخص شخصٌ، فالاختلاف بينهما بالاعتبار كقوله: ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:٤٤].

والمعنى: يأتي كل أحدٍ يدافع عن ذاته، أي: يدافع بأقواله ليدفع تبعات أعماله. وضميرا ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: عائدان إلى كل نفسٍ بحسب المعنى؛ لأن كل نفسٍ يدل على جمعٍ من النفوس(٢).

## رابعًا: التوفية بجزاء الأعمال:

قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة:٢٨١].

قوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا﴾ تذييل للأحكام السابقة؛ لأنه صالحٌ للترهيب من ارتكاب ما نهي عنه والترغيب في فعل ما أمر به؛ لأن في ترك المنهيات السلامة من الآثام، وفي فعل المطلوبات الاستكثار من الثواب، والكل يريد اتقاء ذلك اليوم الذي تطلب فيه السلامة(٣). ومعنى توفية الجزاء بالكسب، قال محمد بن إسحاق: «﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: قال: ثم يجزى بكسبه غير مظلومٍ ولا معتدًى عليه»(٤).

و تعد هذه الآية من آخر ما نزل من القران الكريم دليل واضح على المسئولية الكاملة للأعمال التي تقوم بها كل نفس خيرًا كانت أو شرًا.

وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [آل عمران:٢٥].

هذا خطابٌ للنبي صلى الله عليه وسلم وأمته على جهة التوقيف والتعجب، أي فكيف يكون حالهم أو كيف يصنعون إذا حشروا يوم القيامة وتركوا كل الزخارف التي ادعوها في الدنيا، وجوزوا بما اكتسبوه من كفرهم واجترائهم وقبيح أعمالهم، واللام في قوله« ليومٍ» بمعنى« في»، أو بمعنى لحساب يومٍ، ثم قال: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فلا ينقص من ثواب حسناتهم، ولا يزاد على عقاب سيئاتهم(٥).

---

(١) انظر: المصدر السابق ١٤/ ٣٨١.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ٣٠٣.
(٣) انظر: المصدر السابق ٣/ ٩٧.
(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٣/ ٨٠٥، تفسير القرآن، ابن المنذر ٢/ ٤٧٤.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٥١، فتح القدير، الشوكاني ١/ ٣٧٧. اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٥/ ١٢١.

وعن هدف الاستفهام، قال أبو السعود: «﴿فَكَيْفَ﴾ ردٌّ لقولهم المذكور وإبطال لما غرهم باستعظام ما سيدهمهم وتهويل ما سيحيق بهم من الأهوال، أي: فكيف يكون حالهم ﴿إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ﴾ أي: لجزاء يوم ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: في وقوعه ووقوع ما فيه؟!»(١).

وفي الآية الكريمة بعض القضايا البلاغية منها في قوله تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ إسناد التوفية إلى ما كسبت وعدم ذكر الجزاء، فيه إشارة إلى عدل الله اللطيف الخبير، وهو مساواة الجزاء للعمل، وكأن المثاب يوفى عمله، لا جزاء عمله، وذلك لشدة المساواة بينهما، وأكد سبحانه وتعالى معنى العدالة بقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: سيجزون بأعمالهم، وسينالون ما يستحقون، وكل ما ينالهم بسبب ما فعلوا هو العدل عينه، فإذا ألقوا في السعير فليس في ذلك ظلم بل هو العدل(٢).

### خامسًا: مصيرها:

مصير النفس وأين ستذهب بعد الموت، جاء ذكره كثيرًا في القرآن الكريم، وذلك حتى يعرف الإنسان أين يكون مصيره إن هو آمن والتزم بشرع الله تعالى، أو عصاه واتبع هواه، فإما إلى الجنة وإما إلى النار، ويتضح ذلك من خلال العديد من الآيات الآتية، منها:

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران:١٨٥].

المقصود من هذه الآية تأكيد تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم والمبالغة في إزالة الحزن من قلبه، وذلك من وجهين:

**أحدهما**: أن عاقبة كل الناس الموت، وهذه الغموم والأحزان تذهب وتزول، وبالتالي لن يلتفت العاقل إليها.

**والثاني**: أن بعد هذه الدار دارٌ يتميز فيها المحسن عن المسيء، وتأخذ كل نفسٍ ما يليق بها من الجزاء؛ ولذلك فكل واحد من هذين الوجهين يعمل على إزالة الحزن والغم عن قلوب العقلاء المؤمنين(٣).

معنى الآية: ومصير ومرجع جميع خلقه إليه تعالى؛ لأنه قد حتم الموت على جميعهم، فأوفي كل نفسٍ منهم جزاء عمله يوم القيامة، يعني: توفون أجور أعمالكم يوم القيامة إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًا فشرٌ؛ لأن توفية الأجور وتكميلها يكون ذلك اليوم، فمن نحي عن النار وأبعد منها فقد نجا وظفر بحاجته، أي: أدخل الجنة، ولا غاية

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ٢١.
(٢) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١١٦٦.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٤٥١.

للفوز وراء النجاة من سخط الله والعذاب السرمد، ونيل رضوان الله والنعيم المخلد، وما لذات الدنيا وشهواتها، وما فيها من زينتها وزخارفها إلا متعةٌ يمتعكموها الغرور والخداع المضمحل، فأنتم تتلذذون بما متعكم الغرور من دنياكم، فلا تركنوا إلى الدنيا فتسكنوا إليها، فإنما أنتم منها في غرورٍ تمتعون، ثم أنتم عنها بعد قليلٍ راحلون [1].

وقال تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ [التكوير:١٤].

صيغة الماضي في الآية الواردة أن (إذا) مستعملةٌ في معنى الاستقبال تنبيهًا على تحقق وقوع الشرط، وجواب الشرط هو قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [2].

وقال تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾ [الانفطار:٥].

جملة: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ جوابٌ لما في إذا من معنى الشرط، وهذا العلم كنايةٌ عن الحساب على ما قدمت النفوس وأخرت. وإثبات العلم للناس بما قدموا وأخروا عند حصول تلك الشروط لعدم الاعتداد بعلمهم بذلك الذي كان في الحياة الدنيا، فنزل منزلة عدم العلم، كما في قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ في سورة التكوير.

والعلم يتحقق بإدراك ما لم يكن معلومًا من قبل، وبتذكر ما نسي لطول المدة عليه، وهذا وعيدٌ بالحساب على جميع أعمال المشركين، ووعدٌ للمتقين، ومختلطٌ لمن عملوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا [3].

## موضوعات ذات صلة:

الإنسان، الروح، العقل، القلب

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٢٨٨، الكشاف، الزمخشري ١/ ٤٤٩.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ٧٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ١٤٠.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ١٧٠-١٧٢.